العرب
الأحد 2019/11/24
السنة 42 العدد 11538

الفنون أرض خصبة للثورات (غرافيك «الجديد»)

الواقعية السّحرية اللبنانية

من نار الغابات إلى نور الساحات

قبل أن تشتعل الثورات تكون الفنون أرضها الخصبة، وحين تندلع، تواكبها، وحين تستمر "تصيّرها". تكاد هذه الكلمات تختصر المشهد اللبناني ليس في الأيام الفائتة فحسب بل قبل ذلك بكثير. وإن كان لبنان اليوم يصيّرُ فنونه، فلأنه كان أبدا معجونا بالحركات الفنية كمنطق للعيش حتى في قلب أقسى المراحل التاريخية.

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

الشعب اللبناني لم يكن حتى هذه الثورة قد تخطى الخلل الذي أصاب ذاكرته الجماعية، فقد ظلت ذاكرته حبيسة تلك الحرب الطائفية المقيتة وانقساماتها المرعبة، إلى أن حل السابع عشر من تشرين الأول. هو انتقل منذ 15 سنة إلى مرحلة جديدة اعتاد فيها أن يقاتل ظله المتوثّب عليه من كل صوب.

أما اليوم، فقد تمكن من رصد ظله المُقلق والقلق وتخطيه تماما وصولا إلى جسده الجماعي وروحه الجماعية بكل ألقها في يوم 17 تشرين الأول، أي يوم اندلاع الثورة اللبنانية.

الثورة التي رفضت الطبقة الحاكمة وحاشيتها الإشارة اليها بأكثر من "حراك شعبي" بغية تصوير الشعب أمام ذاته على أنه جنين حزين قطع حبله السري بيده مع السلطة ليخوض في الفوضى ويختنق في ماء الفوضى.

> عرفت الساحات نزاهة السباب، إذا أصاب التعبير، فتحولت الشتائم المُغناة إلى شتائم طاهرة لصدقها ولاندلاعها من أتون الحقيقة المرة وصهيل الكلمة المباشرة

أما الاختناق المرجوّ من قبل سلطة الطائفية والفساد فتُرجم حركة لانقلاب السحر على الساحر. وكما ذهل النظام بانقلاب الشعب عليه، كذلك ذهل الشعب أمام قدرته الهائلة على اجتياح الساحات في تزامن عجيب في جميع المناطق اللبنانية المفصلية، بشكل غير مسبوق، ميزته الأساسية نهوض سحري/سلمي شلّ جميع المرافق في المدن والبلدات.

اتّحد الحزن مع الفرح، الخوف مع اليقين، الواقع مع السحر كما تتّحد المعاني في معظم الأعمال الفنية التي تستخدم الواقعية السحرية كأسلوب للتعبير لا يتعاطى بفكرة "المستحيل" بل بفكرة "الممكن". ربما لأجل ذلك أضفت الساحات المختنقة بالبشر المنتفضين تحت شعارات واحدة والتي كانت منذ بضعة أيام قبل الثورة مستحيله، نوعا من السحر الخاص على المشاهد.

السحر ذاته الذي يشعر به الفرد أمام اللوحات الفنية ذات الطابع الواقعي السحري المعنية بطبيعتها بالأزمات الاجتماعية والسياسية.

يقف الفرد في هذه المظاهرات حالما أمام واقع بحت بعيد كل البعد عن الفانتازيا، إنه السحر وقد صار ممكنا يؤجّ أجيجه في المشهد العام.

بزغت صيغة 17 تشرين الأول بكل مؤثراتها الصوتية والبصرية، صيغة تأسيسية مزلزلة قفزت فوق مراحل الشغب، والضعضعة لتصل مباشرة إلى المصهر حيث زُللت التناقضات والانقسامات الطائفية والحزبية، واتحدت الأوجاع اللبنانية ليولد منها جديد هو لبنان غير مسبوق، تاق إليه اللبنانيون ولم تعرفه أجيالهم الجديدة إلا في صور بالأبيض والأسود عن نضالات آباء الاستقلال.

الثورة التطهرية

دارت خاصية الاستماع في هذه الساحات. تحلّق الجميع حول بعضهم البعض في كتل مُصغّرة ونابضة وتشاركوا في ما بينهم أوجاعهم المشتركة وصولا إلى ذكرياتهم "المؤجّلة".

وبعضهم الآخر تحلّق حول صحافيين ليسردوا أمام الميكروفونات سيرة فرديتهم المقهورة والمنتمية إلى منطق الجماعة، في وجد دانى انهمار الدموع واشتداد الصرخات، وقد أصبحت الكلمات القليلة، الأصوات المفردة أعدادا لا تحصى من الكلمات التي راح يتلفظ بها هؤلاء موجهة إلى الذات أولا، قبل أن تكون موجهة إلى الغير.

كما باتت الكثير من الكلمات تتوالد من بعضها البعض، في سلسلة واحدة من فقرات رصها المتواجدون الواحدة في جوار الأخرى، على قماش الساحات التي استقبلت الكبير في السن والمخضرم والشاب والصغير في السن جدا.

ربما الكثير من الذين حضروا إلى الساحات حاولوا إلى جانب مشاركتهم بالهتاف وبالتعبير الجسدي شبه الشعائري المفتوح على الرقص والارتجاج على أنغام الموسيقى ووقع الكلمات، التأمل عن بعد ومن علوّ طفيف، بهدف رؤية المشهد الفني المتموّج لونيا والمُطعم بدوائر مُتلهفة/ مُتحركة تضيق وتتسع من حول الصحافيين الذين عكفوا على الإصغاء إلى أكبر عدد من الناس.

ولو أراد بعضنا تشبيه هذا التجمهر العام للمشهد فأقرب ما يمكن تشبيهه به هو ما سماه الفنان فينسنت فان غوغ الليلية المشتعلة بنجوم هي أقرب إلى الثقوب السوداء الناطقة من صلبها بالضوء ولكن، شرط استبدال الزرقة بالأحمر القاني المُرصع بالأبيض.

الانغماس الشعبي في تلك الكلية أعطى الثورة دفعا حماسياً هائلا له منطقه الخاص المحصن ضد منطق السلطة، فإذا بهذا التلاقي للأفراد مع الأفراد وهذا الالتحام الجماعي لهم في كتل بشرية يفصح عن حالات هي أقرب إلى فعل التطهر من آثام الماضي لها حرقة خاصة رمى فيها أفراد الشعب أولى تعثراتهم وأولى انقساماتهم على أمل أن يُكتب لهذه الثورة التطهرية الثبات حتى الشفاء الكامل في رحلة قد تطول، على الأرجح سيمدها الفنانون اللبنانيون كل حسب أسلوبه الفني بمبدأ يقول: لا نرسم لكي ننسى بل لنتذكر فصول غيبوبة الذاكرة الجماعية وآثارها.

من المتعارف عليه في علم النفس الجماعي أن ما يُسمى بـ"الخيال الأخلاقي" الذي يستخدمه الفن البصري بوعي أو من غير وعي، قادر على هذا التطهير وقادر على جعل الأفراد ضمن المجتمع الواحد يشعرون الواحد بالآخر، ويتعاطفون معه فيمتنعوا عن إقصائه من ساحة النضال الفكرية والمتلاقية في نوع وليد من التوحد ضد الانقسام والفساد الذي طالهم جميعا، في محاولة جماعية للشفاء من ذلك الفقر الأخلاقي المدقع.

في صلب هذا المصنع/المصهر تخطى اللبنانيون حدود بلدهم لكي يستعيدوا ولو رمزيا دورهم في المنطقة العربية فهتفوا في الساحات لفلسطين المحتلة، هتفوا لسوريا، هتفوا للعراق، والسودان ومصر واليمن والجزائر.

فنون الثورة

الـ17 من تشرين الأوّل شكل إشارة إلى اللحظة التي سلم فيها الشعب عفويا زمام سلطة الساحات إلى الواقعية السحرية تحت شعار أقصى وهو "كلن يعني كلن"، في الإشارة إلى إرادة الشعب في إسقاط النظام، فكرا ومنطقا، ومشاريع، وأفرادا، ضاربين بعرض "جدار صوت" انقساماتهم التي كرسها الزعماء على مدى سنين عديدة.

عندما تُذكر الثورات غالبا ما تُذكر الفنون المُرافقة لها من أغان وأعمال فنية لا سيما الغرافيتي والأفلام الدعائية الصغيرة الداعمة والمروجة لفكر الثورة.

وقد عرف العالم العربي في السنوات الأخيرة أعمالا فنية هائلة رافقت الثورات وعبرت عنها، منها "الفوري" ومنها ما تخمّر طويلا في نفوس مبدعيها قبل خروجها إلى العلن، في أعمال تنوعت بين الفيديو آرت، والتجهيز الفني، والرسومات التوضيحية والكاريكاتورية على السواء.

> الاختناق المرجوّ من قبل سلطة الطائفية والفساد تُرجم حركة لانقلاب السحر على الساحر، وكما ذهل النظام بانقلاب الشعب عليه، كذلك ذهل الشعب أمام قدرته الهائلة على اجتياح الساحات

لا يشكل لبنان حالة شاذة عن ذلك. وقد ظهرت أعمال فنية كثيرة منها الغرافيتي المكتوب والمرسوم على الجدران، لا سيما على جدران الساحات التي تفور فيها براكين الثورة، ومنها المشغول خصيصا لأجل العرض على شبكات التواصل وأهمها الإنستغرام والفيسبوك.

وإن كان لا بد من إطلاق صفة أولية وعامة على تلك الأعمال الفنية هو أنها تنتمي بمعظمها إلى واقعية سحرية "هادئة" لبنانية المزاج يحتضن فيها الواقعي السحري، والعكس بالعكس. أعمال هادفة إلى مناكفة الواقع المرئي الملموس والتغلب على جنونه في آن واحد.

ويُذكر أن الواقعية السحرية نشأت في بدايتها كتيار أدبي قبل أن تصبح أيضا تيارا فنيا في ألمانيا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى وهزيمة ألمانيا، كردة فعل، على الإحساس العارم بخيبة الأمل والغضب من حالة عدم الاستقرار والركود الاقتصادي والدمار شبه الشامل.

كانت ثورة ضد الواقعية البحتة وتوجه نحو سحرية الممكن وليس فنتازية المستحيل. كما كانت لها القدرة آنذاك في رأب الصدع العميق ما بين الواقع وقدرته على التوالد في أشكال أخرى أقل وطأة وأكثر إشراقا.